# المنديل

قصة بقلم
هاشم غرايبة

انتهت مواسم الحصاد ، وجاءت مواسم الفرح . جنى الفلاحون محصولا وافرا . وهذا يعني في قريتنا ان الاعزب فيها يتزوج . والمتزوج ـ أيضا ـ يتزوج امرأة أخرى . لذا استمرت شعل « الجله » المتبتة برؤوس أسياخ حديدية معقوفة الطرف ـ يستعملونها نهارا لاخراج الخبز من الفرن ومساء كأعمدة انارة تثبت على السناسل المحيطة بالساحة ـ ظلت هذه المشاعل تنير ليل أيلول . تتجدد باستمرار ويتراقص دخانها الكثيف تحت نسمات الليل . والصبية من حولها يلعبون . يقلدون دبكات الكبار أو يحصون أيهم جمع عددا أكبر من طلقات البنادق الفارغة التي وجهت الى كبد الفراغ في احتفال الامس .

بعد الغروب يبدأ الشباب بالتوافد والتحلق يصاحبهم حداء رتيب . يرددونه بأصوات عميقة هادئة . في بيت العروس تتجمع الفتيات وعلى أبواب البيوت التي تقع على الطريق بين منزل العروس والساحة تتجمع حلقات النساء يستغبن الناس بصوت خفيض . يوغل الليل قليلا ويتكامل اللحن ويتحلق الشباب في دائرة كبيرة يتنقل وسطها عازف المزمار وتشعل نار حطب في وسط الدائرة تضيء الارض فترتفع حرارة الدبكة وينصب البارود في الهواء ملعلعا ، ويتزاحم الاطفال على الطلقات الفارغة ، ويرش أطفال من أقارب العريس الارض بالماء ، وترتفع زغاريد النساء .

بعد صلاة العشاء يأتي مزيد من الرجال فينزل مزيد من المقاعد الحجرية عن السناسل . تدريجيا تخفت الاصوات الناعمة في بيت العروس وتتسلل النساء الى البيوت الطينية المحيطة بالساحة حيث تتراقص على جدرانها المطلية بالكلس حديثا ظلال الراقصين في الساحة . ان بهجة الاحتفال تلقي على مدخل القرية رونقا خاصا ، حتى لتخال كل شيء يرقص على نغمات المزمار وقرع سيوف الراقصين . حتى الجدران .

بعض النساء يتفرجن من شقوق الابواب الواسعة أصلا والتي زاد من سعتها جفاف الصيف . وبعضهن من فوق السطوح ، والاكثر جراة منهن يشهدن الاحتفال من خلف السناسل المحيطة بالساحة مباشرة ، فيظهرن كهرامات صغيرة سوداء يتراقص عليها ضوء اللهب ويصدر عنها بين الحين والآخر وسوسة وضحكات مبتورة .

حين تخبو النار في الوسط . ويصير اطلاق النار متقطعا بل نادرا ، ينسحب الكبار الى بيوتهم متحسرين على أيام الشباب ، وتنشق الابواب حول الساحة فتجود بما خلفها ، والنتوءات السوداء خلف السناسل تصبح أمامها ... ويختلط الخمر بالماء .

ما أجمل هذه الاماسي !.. لو تكون احداهن احتفالا بعرسي ، أمنية داعبتني وداعبتها كثيرا . في الموسم القادم ، سيكون الامر مختلفا ... ترى هل سيتحقق حلمي ؟ ولم لا ... ان الفقراء يتزوجون ، وهذا صديقي ابن هندومة تكاد زوجته تنجب . هذا عن أحلامي للموسم القادم ، أما في موسم الفرح هذا فقد عشقت الليل والسهر ، أحببت الدبكة والمزمار ، غنيت المواويل ، انتظرت غياب الشمس بفارغ الصبر ، ما أطول تلك الفترة التي كانت تمتد بين مغيب الشمس وذهاب الرجال المسنين الى النوم على مساطب بيوتهم ، وما أطيب تلك اللحظات التي يختلط فيها الخمر بالماء .

هذا عن الليل ... وماذا عن النهار ؟!

النهار بالنسبة لي يعني التبن . التراب . التعب ، النكد . وبالتالي الاهمال ... في النهار لا أحد يحفل بي . بالنهار أمسح مع غيري من « الدراسين والمرابعية والحراثين » . اما في الليل وبالذات في ليل ايلول فأنا نجم الساحة . ومحور الاحتفالات ومركز اهتمام أهل العريس ومطلب المتفرجين ... أما في النهار : الزفة ، الهودج ، الخيل ، السباق . السيوف ، الذبائح ، المناسف . الحلوى ... ان أحدا لا يذكرني هناك ، انهم ينسونني تماما في النهار ويلحون في طلبي ليلا .

اكتشفت اللعبة بسهولة ، تألمت ، كظمت غيظي ،

كرمى لعينيها قبلت بهذا الوضع ، المهم ان تكون عيناها مطلتين على الساحة وأنا مستعد أن أعمل المستحيل لاطرابها . أن مجرد شعوري بوجودها يحفزني لاعطي أفضل ما عندي . فأنا نجم الساحة ولولب الاحتفال ، وهذا مركز لم أصله بالسهولة... لقد كان يوما مشهودا يوم انتصرت على « الطاووس » ، كان ينفخ صدره . يمسك بعصاه القصيرة يحركها بعصبية . يتحرك وسط الساحة بمشية عسكرية مطعمة على مشيته الريفية . وحين ترتفع حرارة الاحتفال يبدو كديك رومي ذبيح . ولكن لحاجتهم له وكعادتهم على حل الامور حلا وسطيا لم يسموه البلبل ولا لقبوه بالديك الرومي ، منحوه لقبا وسطا ، فصار اسمه الطاووس .

... في تلك الليلة بالذات كان واضحا انه يتثاقل عن أداء الحركات الرشيقة ، وبسبب ثقل جسمه تفصد العرق من جبينه على الرغم من تعمده عدم بذل مجهود يذكر . ليلتها كان العرس لابن هندومة صديقي وملهمي . لا أدري هل كان توهما مني أم حقيقة ؟ المهم ان هذا الطاووس اللعين لم يكن مهنما بعرس صديقي ... ان الفقراء يتزوجون ، لكن هل عرس الفقراء كعرس الآخرين ؟ هذه الفرحة التي أستشعرها لعرس ابن هندومة وكأنها الاشارة الخضراء لعرسي ، هذه الفرحة يكاد يقتلها الطاووس ... لا لن أسمح له ، للفقراء أفراحهم التي يجب أن تتم ... وعرسك يا صديقي سأجعل منه أجمل الاعراس .

آه يا صديقي العزيز ! كنت أنت « المرابعي وأنا الدرّاس » .. كنت تدير القش على البيدر وأنا أدور خلف الدابة لطحن القش ، كلانا على بيدر واحد لفلاح متوسط الحال . كنا نقتسم « الكردوش » ونشرب عليه ماء اللبن الذي استخرجت منه الزبدة . نجلس مساء نفترش القش وتحدثني عن الزير سالم وأبو زيد الهلالي وأشياء أخرى . من خلال أحاديثك عرفت ان العالم أوسع من قريتنا بكثير ، وان للحياة قواعد غير متن الخزرجية . كنت تحمل بين حاجبيك هموم الدنيا ، شديد الصبر . قليل الكلام ، لكنك بالرغم من كل شيء كنت تجد لكل معضلة حلا . وحين كنت أشكو لك هما بحجم كومة البيدر كنت تجعله يتضاءل حتى يصبح كحبة عدس . كنت عظيما شاركتني اكتشاف نفسي وفسرت لي حسي المفاجيء بالرجولة . آه أيها الصديق ! انك لا تخلو من عين نفاذة ... لقد لاحظت اهتمامي بها قبل أن ألحظه أنا . حين كان الدم القليل في جسمي يصعد الى وجهي وهي تمر من بين تلال القش حاملة صرة الطعام لوالدها على البيدر المجاور ، كنت تلاحظ وتبتسم ، وتشيح بوجهك . وحين انتهزت ذات يوم فرصة وجودها عند أبيها وقت الغداء وذهبت أطلب ماء ، أحسست أنت بذلك أيها ( الخبيث ) ، حين عدت اليك غمزت لي بطرف عينك وأخذت تحاصرني بتعليقات مقتضبة ، لا تعني لغيري شيئا ، لكنها كانت تصدر دويا حين تصطدم بأحاسيسي المتوترة الغامضة . يومها صرخت بوجهك وأنا أدور حول كومة القش :

ـ نعم اني أحبها ... في العام القادم سأعمل حراثا وساكون « مرابعيا » عند المختار ، وأجمع ثروة تجعلني جديرا باثارة اهتمامها .

صرخت بهذا في وجهك دفعة واحدة . غرست « الشاعوب » بكومة القش واتكأت على ذراعه الخشبي وصمت .

... اني أعلم كبر طموحي قياسا لسني . لكن سأحاول اذا استطعت أن أكون « مرابعيا » لفلاح متوسط الحال... لا يهم . المهم أن أشعرك انك لا تمتاز عني بشيء وأن أشعرها بأني أصبحت في مصاف الرجال . المهم أن أكون جديرا باحترامها . جديرا بنظرة منها تجود عليّ بها وأنا أنفخ في راحتي وأدير القش كالرجال .

أيها الشيطان . كنت تقرأ افكاري حين قلت بعد صمت :

ـ رحم الله امرءا عرف قدر نفسه .

فلتها ببطء وتأكيد وتابعت عملك وكأن شيئا لم يحصل . كم كنت ساعتها صارما ومخيفا ومحبوبا وصديقا !

في المساء اقتسمنا « الكردوش » وشربنا ماء اللبن وتمددت يا معلمي على ظهرك ناظرا للنجوم ، مصمصت شفتيك وأعلنت :

ـ سأتزوج هذا العام ... ما رأيك ؟

رأيي ؟!.. فغرت فمي ساعتها استهجانا . لماذا ؟ أليس ابن هندومة رجلا كباقي الرجال ؟ بلى . لكنه ... وجففت كلمة ( فقير ) حلقي . تساءلت : هل يتزوج الفقراء ؟ لكنك يا معلمي كنت واثقا مما تقول .

يومها تفتحت عيني على هوة لم أكن قد اكتشفتها بعد ... هل أتزوج أنا أيضا ؟ فكرة لم تخطر لي على بال من قبل . جلّ ما كنت أطمح فيه أن أثبت وجودي ، أن اكسب اعترافا ، أن تجود عليّ بنظرة ... أو ابتسامة في أفضل الاحوال . لكن ما دمت أنت تفكر بالزواج يا صديقي ، فلم لا أفكر فيه أنا أيضا ؟

لكن هل يتزوج أمثالنا ؟

آه يا أمسيات أيلول الجميلة ، هل تكون أحداكن احتفالا بعرسي ؟ أمنية سأعمل على تحقيقها . أن أجلس على دفة الخشب خلف الدابة وأمضي نهاري أدور في حلقة مفرغة فوق القش . هذا وضع لم يعد يناسبني . لقد صار احساسي بالرجولة قويا يا صديقي ، واهتمامي برعاية هذا القلق الناعم الذي يسمونه الهوى أصبح أكبر . آه يا صديقي العزيز ! ما أجمل الذكرى . كنا « درّاسا ومرابعيا » ، وكنت الى جانبي . اليوم أقف

الى جانبك . لن اسمح لهذا الطاووس أن يفتأ احتفال عرسك . هذا المجنون لا يعرف فرحتي بعرسك . عرسك اليوم عرسي بعد عام . ( ومن سار على الدرب وصل ) هكذا كنت تقول .

تنبهت مرة أخرى الى ثقل جو الاحتفال . وعزّ عليّ صديقي وعزت علي الاماني ، فانفلت من قوس الجوقة الراقصة الى منتصف الدائرة وقدمت رقصات منفردة اجتهدت أن أحمس بها ولا أدع الفرصة لهذا الطاووس للاستخفاف بعرس صديقي وزميل مهنتي . أقول زميل بجدارة وثقة الآن . تبا لهم . حتى في الاعراس لا يعطون الفقراء حقهم !

يجب أن يكون الاحتفال ساخنا . انفلتّ من قوس الجوقة ، قدمت عروضا فردية نالت اعجاب الجميع ، وتزاحمت أكتاف الرجال من حول الحلقة ، وسمعت تنهيدات من خلف سور الرجال زادت من حماسي . ونظر اليّ الطاووس باحتقار في بادىء الامر ، ولما لاحظ اهتمام المتفرجين بما أقدم ، احمرت عيناه وبدأ يتقصد اصدار تعليماته لي بالتزام القوس . لكن الناس طلبوا مني المزيد ، تشجعت وضربت عرض الحائط بتعليماته ، وجدت من كلمات التشجيع ما يعميني عما خلف نظراته الحاقدة . حاول طريقة أخرى ، أخذ يقدم عروضا أقوى بتحد غير معلن ، سررت بأن صرت له ندا . واجتهد في عمل ما يتصور اني لا أستطيع القيام به ، وارتفعت حرارة الاحتفال ، وكان هذا هو جلّ مطلبي.. لكن للتحدي لذة استثارتني فقلدته وأجدت الحركات بأحسن مما فعل وزدت عليها حركات جديدة ـ اثارتي التراب على البيادر وتحمل عصا صاحب البيدر ووجوم ابن هندومة ، بعثرتي أثاث البيت وتحمل صياح الام وطرد الوالد لم يذهبن سدى ... لقد تدربت بما فيه الكفاية لاجادة الرقص والدبكة .

استشاط الطاووس غضبا ... وقرر على ما يبدو أن يقلب الفرح غما حين جاء دور رقصة السيف ، ( ابن ... ) انه يتجاهلني ، ينتدب الواحد تلو الآخر وأنا لا يأبه بي . لكن لن أخيب همسات الاستحسان الناعمة التي سمعتها رغما عن الضوضاء .

انتهزت فرصة تبديل راقص بآخر وقفزت قبالته تماما ومددت ذراعي بعصاي معلنا تحديه ... نظر اليّ شذرا وقذف بسيفه فانغرس في الارض على بعد أمتار وهمّ بمغادرة الساحة . اندفع الناس يريدون ارضاءه ، فانقسموا مجموعتين : الكبرى تحيط به والصغرى من حولي :

ـ يستر عليك استر علينا ولا تخرب السهرة .

ـ تبارزه بعصاك وهو يحمل سيفا .. هذه اهانة.

ـ شب جاهل ... لا تأبه له .

ـ عيب ... عرس صاحبك . انسحب واخز الشيطان .

ـ حقك علينا ... اسمحها بهاللحية .

ازددت نباتا ، غرست عصاي بالارض واتكأت عليها . أعلم انه يناور ... وبوده لو يعود ، ترى هل سيمكن مني ؟ لا أدري ، ولكن سأبذل جهدي .

أعرف ان الطاووس محسوب المختار ، واغضابه يعني غضب المختار . لكن من أجل نظرة من عينيها تهون الصعاب . وصديقي ألا أسبب له الاحراج ؟ بلى ! لكن ذنبه على جنبه ... لقد قال لي يوما : « اذا قدرت تغيب غيب . واذا لزمت صير ذيب » . ولمحت عينيها الجميلتين ترفعان الوتف من فوق أكتاف الرجال بفضول ، كم أود لو تجود عليّ هاتان العينان بنظرة تطفىء حر الظهيرة وتمسح عن وجهي كدّ البيادر . لكن من لمثلي المغبر بالتبن الملبد الجلد بالتراب والعرق أن يكسب نظرة من عين حسناء ؟ الآن أنا أكسب النظرة والموقف ، وأبرهن للناس عن وجودي . لم أصغ الى لوم اللائمين ولم أنطق ببنت شفة .

... أصرّ الطاووس على الرحيل ، وكبرت الدائرة من حولي حتى احتوت الجميع . سحبت عصاي من الارض . لوحت بها حركات رشيقة ، نقلت قدمي بخفة وتمايل جسمي رافصا . بدأ بعض من شبّوا معي عن الطوق ينتظمون من حولي ، وحاولنا فرض استمرارية الاحتفال . صحيح ان بعض الشباب لم يجرؤوا على المشاركة وآخرين استصغروها بحق أنفسهم أن يدبكوا معي ، كان حولي عدد كاف لتقديم عرض ما . تنقلت بهم ببطء وحذر لكن بسلاسة ورشاقة ، تعمدت أن لا أقودهم للحركات الصعبة المباشرة ، لكني كنت حازما مع من يتلعثم منهم أو تتعثر قدماه في الاداء .

( ابن... ) عازف المزمار انه أجبن من أن يشاركنا، انه يقف هناك ، مزماره بيده ، يتحرق شوقا لمشاركتنا لكنه لا يجرؤ ، لا يجرؤ .

الناس يلفظون ، وهمهمات النساء تصل الى أذنيّ ، والنار تخبو في الوسط ، ولا من لديه الحماسة باطلاق الرصاص . لن أسمح للامور أن تفلت من يدي .

رفعت حرارة الدبكة قليلا ... قمت ببعض الاستعراضات الفردية تاركا المجموعة تؤدي حركتها الرتيبة الرشيقة ، ثم ناولت عصاي لافضلهم ، أصدرت بعض التعليمات السريعة الحازمة ، وارتفعت حرارة المجموعة أكثر . وامتدت بعض الاعناق لترى قلب الساحة . ما أصعب أن تقود الدبكة دون مزمار ... ان أحدا لا يرقص على نغمات لا شيء الا هذه الفئة المجنونة في قلب ساحة قريتنا .

وجهت الامور من خلال قائد الرقصة الجديد حتى انتظمت ، وبحركة سريعة خطفت المزمار من يد عازفه ، وسكبت من قلبي الحانا لعينيها ، ونجح من انتقيته لضبط الايقاعات المجموعة الراقصة ، واستدارت كل

الوجوه باتجاه قلب الساحة . لكن من يغني ؟! الزجال غاب هو الآخر ... هرب .

عزفت ألحانا أكثر حماسة ، وبدأ قائد الرقصة يأخذ دوره بشكل أفضل من ذي قبل ، وزيدت النار حطبا ، وصدرت بعض الزغاريد من خلف السناسل ، وأطلقت رصاصات قليلة لكنها مشجعة .

بدأ الجو العام بالتوافق مع ما نقدمه ، ولاحظت أرجل المتفرجين وهي تنقر الارض طربا ، وبالذات عازف المزمار كان مأخوذا بالطرب ، فأذنه الموسيقية لم تخنه في حين خانته شجاعته ، انتهزت فرصة قربي منه ، بحركة سريعة جذبته الى وسط الساحة وناولته مزماره، تطلع حوله بوجل لكنه لم يتمكن من مقاومة اغراء المهنة ، فبدأ متلعثما ثم انسجم صوت مزماره فتجلى وأعطى ، وأنا أخذت دوري في الغناء .

غنيت فاستهجنت صوتي ، لقد كان جميلا منسجما شنف الآذان . بالرغم من تعبي فقد ترطب فمي مع سماع عبارات الاستحسان . عادت للساحة حيويتها، وعادت لصديقي ابتسامته بعد تجهم ، وفزت أنا بعبارة استحسان أظنها منها بالذات .

وحين سحبت سيف الطاووس ورقصت به ، تزاحمت العيون ، وطال انتظار انسحاب المسنين ، وساعة اختلط الخمر بالماء عرفت معنى أن تلتقي روحان ومعنى أن يتبادل اثنان الحب .

من يومها وأنا لعينيها أغني فتتمايل الرؤوس طربا وتكثر التنهيدات من خلف سور الرجال . أعزف على المزمار فتهتز أرجل الشباب وترتفع حرارة الدبكة ، وحين أرقص بالسيف تتزاحم عيون خجلى من فوق أكتاف الرجال .

الطاووس لم يستسلم ، حاول اعتراضي بزقاق من أزقة القرية مع زمرة من أتباعه . يومها اكتشفوا مهارتي باستعمال حجارة السناسل . بعد هذه المعركة ، استدعاني المختار وبارك لي قيادة الحفلات . لكني لم أصبح من رجاله ... أعرف انه باركني على مضض . لم ارفض ولم أقبل واحتفظت بهذه المسافة بيني وبين المختار . نسي الناس القصة وتذكروا فقط نجم الليل وقمر الساحة وحبيبته ذات العيون الجميلة التي لم يعرفوها بعد .

هذا الموسم تطورت الامور ... عجوز في الحي لاحظت مصبّ نظراتها ، وشاب غيور عرف طريق بسمتها ... فشاع الخبر في القرية .

كثر الحديث عنها وعني . لفتت عيني ابن المختار لجمالها ، فعزم على خطبتها . حسما للقيل والقال وافق والدها . علقت العجوز : « لف بنتك بعباء وارميها بدار الغناه » . وعضّ الشاب الغيور على نواجذه وقال : « آخ لو كان ابي مختارا » .

تقرحت جفوني وصار بصوتي رنة أسى . انقلبت « الميجانا » « عتابا » . ويوم جهرت بما أكنّ :

ـ الكف لا تلاطم المخرز .

نصحني الناس ...

صار العرس لابن المختار . انشغلت الساحة طيلة أسبوع تحتفل بعرس ابن المختار . في ليالي الفرح افتقدني الناس ، البعض توقع ان أعطي أفضل ما عندي نكاية بها ، لكني أفشلت تخميناتهم . لم يفطن أحد اني خبأت أفضل ما عندي لاحتفال النهار .

صباح اليوم الموعود ، تمايل هودج العروس والنساء من حوله يرددن الاغاني ، وأطلّ موكب العريس والخيل أمامها تطرد بعضها .

ـ هذا ميدان ، والفارس منكم يعرض مهارته ( صاح المختار ) . فتاة خلف الهودج غرفت من قلب العروس لتصبّ في أذني :

ـ « أويها ... ياسمراني يا الـ عيروني الناس فيك . أويها ... لاركب جواد الخيل والحق فيك . » .

فعل الصوت فعله في وضعي أمام ما قررت وجها لوجه ، مثل ومضة ضوء انطلقت على مهرة أصيلة ، ما كادت الشمس تعلن نفسها في منتصف السماء حتى أعلن فوزي على الجميع . وسط دهشة الجميع وقف العريس باسطا الراية للفارس الفائز . حاولت المهرة الانطلاق باتجاه الراية بحكم تعودها فشددت لجامها للآخر .

ـ هل أساوم ؟

هذه فرصتي لانتقم لكل نهار أهملت فيه ، انني أفرض وجودي الآن . أنا نجم الليل صارعت وانتصرت ، وفرضت نفسي على احتفالات الليل . هل أصبحت فارس النهار ؟ نعم . هل أكتفي بفرض نفسي فارسا للميدان ؟ لكن ما فائدة ذلك بدون حبيبة ؟..

ـ هل أدجّن ؟ لن أصالح . ( حسمتها ) .

دارت المهرة حول نفسها دورتين ، ثارت من تحت حوافرها زوبعة . في منتصف الميدان كنت أمام خيارين. بأي الاتجاهين أمضي ؟ كانت نصف الطريق باتجاه المختار ونصفها باتجاه الحبيبة . نصف الطريق باتجاه العريس ونصفها باتجاه الهودج . هل أتجه للمختار ، وأصير فارس النهار ونجم الليل وهذا وضع يحسدني عليه البعض ؟ لكن ابن هندومة لن يكون مسرورا . أنا أعرفه لا يحب المختار . كان يقول : « كل مجد في ظله زائف » .

ـ من يقطع نصف الطريق عليه أن يكمل المشوار !

كسهم من عين مليحة الى قلب مشتاق انطلقت باتجاه الهودج . اصفرّ وجه العريس واكفهرت وجوه الرجال . أفلت صوت محايد :

ـ يا عيب العيب يمر من عند النساء .

كرة أخرى احمرت الاحداق وسرت همهمة من

حلوق الرجال في الطرف البعيد ... لم يكن لديّ الوقت لالتقاط ما يقال .

كانت الثالثة هي الكرّة التي قررت فيها أن أنتقم .. الآن سأحملها وأطير بها ولتهو السماء على الارض !

انطلقت بكل توتري لقطف الثمرة المحرمة في اللحظة الاخيرة . « تقنطرت الكحيلة » . تعثرت الفرس أمام الهودج ، وقعت .

وقفت كل من الوجوه المجهمة سدت عليّ التنفس . تراجعت . التصقت بالهودج ، دائرة من الحدقات المحمرة أحاطت بي ووضعتني أمام أمر واقع . بحركة دفاعية لا ارادية كانت يدي على مقبض «الشبرية» ، لاح بيدي منديل أبيض ! عرفوه : منديل العروس !

كان المنديل بيدي في الكرّة الثانية ، ناولتني منديلها الابيض المبلل بالدموع رمزا لموافقتها على المغامرة . استوليت على الهودج وتسلمت علمه ولن أستسلم . لن أستسلم . لكن المهرة الملعونة خانتني .. « تقنطرت » .. سقطت واسقطتني .

تفجّر الهمس في مجموعة النساء خلف الهودج :

— لا جاه ولا مال ويعترض لابن المختار .

— الطفران عدو السلطان .

— ابوه نزيل السجون ... وفرخ البط عوام .

شدت الحطات على الرؤوس ، انعقدت غيمة من « العقل » السوداء فوق رأسي ، التصقت بالهودج أكثر . تذكرت وصية والدي : « تحاشاها يابه وان وقعت صير قدها » .

— « قدها » .

استللت خنجري ، اتسعت الدائرة من حولي ، نهضت الفرس ، تقدمت منها ، انداحت مجموعة الرجال باتجاه الهودج ، فقدت الطمأنينة المؤقتة التي استشعرتها وظهري مسند للهودج .

لم أكن أدري كيف يستمدّ القوي صموده من الضعيف . كانت مستضعفة وأسيرة هودج ، وكنت أشعر بالقوة والحرية والخنجر اللاصق بقبضتي . بدونها لا معنى للبطولة . من أجلها أواجه ، لعينيها أتحدى ... واقتحم .

لحظات قصيرة انقضت منذ أن تقدمت باتجاه الفرس ، لكن لكثافتها خلتها طويلة ، وددت لو أعود فألصق ظهري لهودجها .

لو أطلت الوقوف هناك لحظة أو لحظتين أكثر . لن تنقلب موازين القوى ، لو فعلتها ... كانت لحظات ضائعة خلتها تساوي كثيرا . وشعرت بالندم . حاولت العودة للهودج ، كانت الطريق مسدودة بوجوه لا تعكس الا الشر . في الكتلة البشرية المحيطة بي لاحظت الحيرة . معظم الرجال بين اعجابهم بجرأتي وعدم تسامحهم بخرق التقاليد كانوا حائرين للحظات ، فكانت الحيرة المؤقتة هي فرصتي ، وكانت الفرجة التي انطلقت منها ، كهبة ريح صرت على ظهر الفرس وطرت . أفلت صوت نسائي مندهش من خلفي :

— لقد احتفظ بالمنديل !

خلفي انطلق الصوت كانهيار السلاسل أيام المطر . هدر الصوت من حناجر رجال المختار :

« واحنا نوينا ع الفريع . طلي وشوفي فعالنا
وانتن غواكن شعركن . واحنا غوانا خيولنا »

تنادت الاصوات من مسافة ليست بعيدة خلفي أن لن يرجعوا الا ومعهم المنديل أحمر من دم هذا المارق .

هل أنا مارق ؟!

هذه البغلة الملعونة تحتى هي المارقة ... لو لم تخذلني ؟! كدت أبقر خاصرتيها بكعبي غيظا واستحثاثا لها على السرعة ... هل أصابتها عدوى محبة الهودج ؟.. هل أنا غير جاد في الابتعاد عن الحبيبة ؟! لا أدري !

حدثت أشياء قليلة وقيل كلام كثير قبل أن يدركوني . ويتصاعد غبار النقع .

كان الهودج بعيدا لا تصلني من طرفه الا الاصوات المبتورة الغاضبة . والتقطت أذني زغرودة لم تكتمل من طرف أم العريس . لعلها تحاول أن تحمس الرجال المنتشرين كدرب التبانة بين الهودج وبيني ، بعضهم ظنها تؤنس وحشتها ، معظمهم لم يكن جادا في مطاردتي . خيم الصمت تماما حول الهودج وأدركوني .. أدركوني .. ملعون هو التردد ، أن تترك قلبك وتبتعد عنه حينها لن تكون جادا في الهرب واو كان تحتك الابجر ... ملعون هو العشق حين يكون حادا فتنتقل عدواه للفرس فتتخبط لا تعرف بأي اتجاه تغذ السير فيه ما دام الاتجاه الصحيح واضحا ، ما دام الهودج قائما . كل نقع بعيد عن الهودج ليس معركتي ... أدركوني ... وحصلت أشياء كثيرة ...

كنت ملقى في العراء مهشما وحيدا حين ميزت الاصوات وأدركتها تبتعد عني .

— اسقطته عن ظهر الفرس .

— ضربنه بكعب البارودة .

— كسرت له سنا .

— مزقت جلده بخنجري .

لكن احدا منهم لم يجرؤ على ذكر المنديل . بصعوبة ووهن وتوتر سمعت أم العريس وهي تصيح بالرجال العائدين اليها :

— المنديل ؟!

بكل ما استجمعت من قوة فتحت عيوني وأدرت راسي باتجاه الهودج ، كانت الرؤوس منكسة ويرين على المكان صمت عميق .